الفصل الثاني

الاستعداد الروحي للفاتحة

تأمّلات حول الاستعاذة

إن الإنسان إذا أراد أن يدخل في عالَم كلام الله فعليه أن يستعدّ لذلك بقلبِه وروحِه ومشاعرِه، وإنما يتأتى له ذلك بتنقية هذه الآليّات وتنظيفِها من سُلطة الشيطان؛ فإن الله تعالى انتزعَ الشيطانَ من بينِ صفوف الملائكة، وطَرَدَه من بابه، وحَرَمَه مِن رحمَتِهِ، وحرَّم عليه الصعودَ إلى السماوات... فعلى المؤمن أيضًا أن يطردَهُ من قلبه الذي هو أعظمُ حرمةً من الكعبة، حتى يكونَ متخلِّقًا بأخلاق الله، مستحقًّا للولوجِ إلى رحاب القرآن.

فبهذه المشاعر حينما نبدأُ بتلاوة القرآن نقول في البداية: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، واستحبّ بعضُ الأئمة مثل الإمام أحمد بن حنبل زيادةَ: "السَّميع العليم" حيث تكون الصيغة: "أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ".

أ. شرح المفردات وتحليلها

١- أعوذ

هو مشتق من العَوْذ، وله معان عدة: الالتجاء إلى أحد، والاستجارة به، والتعلُّق والتشبُّث به، فيكون المعنى: إليه ألتجِئ، وبه أستجيرُ وأتشبَّث.

أي ألتجئ إلى لطف الله وعنايته وإحسانه، واعتمادًا على لطفه تعالى أستجير به من كلِّ شيءٍ يؤذيني ويضرُّني، ولاعتمادي عليه أتشبَّثُ به وأعتصِمُ بحبلِهِ.

أي إني في منتهى الضعفِ والضحالة، لكنّي باتِّكالي عليه تعالى أقاوم كلَّ شيءٍ؛ وهكذا أبوءُ بمنتهى القوَّةِ تجاه الشيطان الذي يتربَّصُ بي الدوائر، ولا يألو جهدًا في وضعِ مختلفِ الفخاخِ والمصائدِ في طريقي.

٢- بِاللهِ

إن لفظة "الله" تختَزِلُ معانيَ جميع الأسماء الإلهيّة المتجلّية في الكون، ومسمَّاه هو الذات المنزَّهُ عن صفاتِ النقصانِ كلِّها، والمتَّصِفُ بصفات الكمال كلها، الذي تتموَّجُ جميع الكائنات بتجلِّيات أسمائِهِ وصفاتِهِ، والذي لا يحيطُ به إدراكُ البشر، وليس كمثلِهِ شيءٌ.

ومعنى قولنا: "أعوذُ بالله": ألتجئُ وأعتمد على من بِيَدِهِ التصرُّفُ في كلِّ الكون، مِن كلِّ الشرور والأشرار والشياطينِ الذين يأتوننا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ومن تحتنا.

٣- الشيطان

كلمة "الشيطان" مشتق إما مِن "شَطَنَ - يشطُن" أي بَعُدَ، وإما مِن "شَاطَ - يَشِيطُ" أي هَلَكَ واحترقَ، وقال ابن عباس ﷺ: "الشيطانُ كلُّ متمرِّدٍ من الجن والإنس والدوابّ".

وعلى الأول فكلُّ من ابتعد من رحمة الله فهو شيطان، سواء كان من الإنس أو الجن، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (سورة الأنعام: ١١٢/٦).

وأما إذا اعتبرناه مشتقًّا من "شاط - يَشيط" فيكون السبب في تسميته "شيطانًا" أنه كان بإمكانه أن يقوم بأعمالٍ مفيدةٍ له وأن يتقرَّب إلى الله بالسجود، لكنه تَمرَّدَ على الله وجمحَ، وبذلك أهلكَ نفسَه.

٤- الرجيم

الرجيم بمعنى المرجوم، كاللعين بمعنى الملعون... أي المطرود من باب الله، والمُبْعَد عنه تعالى.

إن الإنسان قد لا يَشعُر بوساوِس الشيطان، وحتى إنْ شعر ببعضها فلا يستطيع التخلُّصَ منها، فكأن الشيطان أَسَّسَ محطَّةً في قلب الإنسان، وقعدَ على رأسِهِ ليتحكَّمَ فيه، ومِن بعد ذلك ركَّز فيه لاقطًا أو جهازَ استقبالٍ خاصٍّ بالوساوِس الشيطانية.

فكما أن في قلب الإنسان جهازَ استقبالٍ أو آلةً يستطيع أن يتلقَّى بها ما يَرِد من الحقِّ تعالى؛ فكذلك هناك محطّة للشيطان.

فالشيطان يلقِّن مشاعرَ الإنسان وأحاسيسَه أمورًا قد لا يُحسُّ هو بها غالبًا، وإنْ أحسّ بها فالوساوس التي تستقبلها المشاعرُ لن يكون بمقدورِ الإنسان دفعُها في كثيرٍ من الأحيان، فحينئذٍ نقول: "أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، ونلتجِئ إلى السميع الذي يَسمع ما يُلقيه الشيطانُ في قلوبنا من الوساوس التي لا نَقْدِر على سمعها، وإلى العليم الذي يَعلمُ حقيقةَ تلك الوساوس ويَقْدِر على دَفْعِها، لأنّه هو الأعلمُ والأحكمُ والأقدرُ والأبصرُ...

ب. ما تنطوي عليه الاستعاذة من الغايات والحِكَم

١- الاستعاذةُ وماهيةُ الإنسان

الإنسان كائنٌ مُعَرَّض لكثيرٍ من البلايا، وله أعداء كُثُرٌ، إنه مخلوقٌ ذو كمٍّ هائلٍ من الأعداء المفترَضين، بدءًا من البعوضة مرورًا بالحمَّى ووصولًا إلى الأجرام السماوية، حتى إنه معرَّض -مثلًا- لأن يأتي نجمٌ من السماء فيصطدمَ بالكرة الأرضيّة التي يعيش هو عليها، فإذا كان لا يستطيع أن يدفعَ أيَّ واحدٍ من هذه الشرور والأخطار؛ فلا بدَّ له أن يلتجِئَ ويعتمدَ على مَن هو قادر على فعلِ ذلك، ومِن جانبٍ آخر؛ فالإنسانُ مضطرٌّ إلى كثيرٍ من الأمور، لعلَّ أبرزَها هو جلبُ ضياءِ جمال الله -ذلك الجمال الذي ليست الأرضُ والشمس والجنَّةُ وكلُّ الأضواء والأنوار إلا قبسًا من ضيائه-، وكلُّ هذه الأمور التي هو بحاجةٍ إلى دفعِها أو جلبِها تفوقُ طاقَتَهُ وتتوقّف عندها قدراتُه.

فإدراك الإنسان لهذا الوضع وشعورُه به يُسَمَّى "معرفة النفس" أي معرفته لنفسه، فالإنسان يبدأُ في كلِّ أعمالِهِ بهذه المعرِفة.

إن الإنسان عليه أن يدافِعَ عن نفسِهِ ولكنه لا يملك سلاحًا، وعليه أن يقاوم البلايا والمصائب، ولكنه لا يملك طاقةً وقوّةً، وعليه أن يُشبع رغباتِه التي تمتدُّ إلى الأبد ولكن ليس بإمكانه ذلك.

فالإنسان الذي يصل إلى مستوى "معرفة النفس" يرى نفسه في البداية على الوجهِ الحقيقي مسكينًا عاجزًا ضعيفًا، فإذا بقلبِهِ يغمره التواضع والانكسار... فيعود كسيفَ البالِ، منكسرَ الروح والأحاسيس، مَهِيضَ الجناح، مَحْنِيَّ الرأسِ؛ بحيث إنه بوضعه هذا حتى وإن لم ينبس ببنتِ شفة؛ فالمولى تبارك وتعالى سيَرْأَفُ بحاله وسيرحمه.

وهذا جانبٌ آخر من الموضوع...

وفي هذه الحالة نجد أنفسنا أمام حالةٍ مختلفة، وهي ما نسميها "الفعل والعمل"؛ ففي القلب يبدأ تمنّي حفظ الحق تعالى وعنايتِه وكرمه، فكأن الإنسان بكلّ كيانه يبحثُ في داخلِهِ عن سبلٍ للسموّ والارتقاء، واللسانُ يكون ترجمانًا لهذه الحالة التي تنبعث من الفؤاد ويقول: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، والمعنى: "اللهم يا ذا الطَّول والقوة، إني ألتجئ إليك بكلّ كياني، فلا ملجأ إلا إليك".

وكم من الناس من يتمنّى أن يكون مؤمنًا صادقًا، ذا عقيدةٍ قويّةٍ، وأن يحيا حياةً مستقيمةً، ولكن الشيطان الوسواس الخناسَ ينحرفُ به، فكما لا يستطيع أمثال هؤلاء أن يَحيَوا حياة مستقيمةً فكذلك لا يستطيعون أن يحافظوا على عقيدتهم، فمَن هذه حالُه عليه أن يقول تجاه الأمور التي لا طاقةَ له بها: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، تلك الجملة التي تعني الالتجاءَ إلى عناية الله تعالى.

إن الله ﷻ أَدْرَجَ في ماهيّة الإنسان مشاعر طبيعيّةً مثلَ الشهوة والغضب وغير ذلك، وجبَلَهُ عليها حتى تكونَ مَدارًا لارتقائه وسُمُوّه، فهذه الأمور تكون منابع ووسائل لِتَرَقِّيه، فالله الذي خَلق النارَ ليستفيد بها الإنسان خَلق الشهوة أيضًا للغاية نفسها؛ حتى يتناسل الإنسان، ويَكثُر عددُ الأمة المحمدية، وتزيد أعداد مرايا الأسماء والصفات الإلهية، وتتحققَ بذلك المَقاصدُ الإلهية... فغريزة الشهوة التي مُنحت الإنسانَ لتحقيق هدفٍ سَامٍ كهذا نراها في كثيرٍ من الأحيانِ تُوردِي بالإنسان في مَهاوي الظلمات وتُغرقه، والإنسانُ فُطِر على حبِّ التحليق في الذُرى، ومُنِحَ الاستعدادَ لذلك، فإذا بالشهوة تُجبره على الذوبان في مراجل الجسمانية، وتُحيط بكيانِهِ حتى تخنقَهُ في سجنها.

والغضب وسائر الغرائز الطبيعية كلها قد أُودِعت في ماهية الإنسان

وجَذرِهِ لأهدافٍ سامية؛ ولكنَّ الإنسان الذي يَنُوءُ بحمل ذلك كلِّه يضيق ذرعًا ويَبلُغ منه القلبُ الحنجرةَ، في حين أنه يودّ أن يرفرف بجناحيه مثل الحمائم ويحلِّقَ في الأعالي، وحينما يَعجز عن ذلك يخطرُ على باله الالتجاءُ إلى الله والاستجارةُ به فيقول: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

٢- الاستعاذة علامة صِدْقِ الولاء

إن الاستعاذة في أحدِ معانيها: ضربٌ من ضروب الاعتذار، ومن جانبٍ آخرَ هي: علامةٌ على صدق المحبّة وسلامةِ الولاء، وحسب تعريفٍ آخر هي: تفويضُ المخلوقِ للخالقِ كل أمورِهِ وكلَّ ما يتعرّض له من الارتباك والحيرة، فها هو سيدنا نوح عليه السلام الذي كان من أولي العزم من الرسل، حينما نبَّهَهُ الحقُّ تعالى في ابنه بقوله: ﴿**يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/٤٦) نراه على جناح السرعة يقول: ﴿**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/٤٧).

وسيدنا يوسف عليه السلام كذلك جابَهَ طلبَ امرأةِ العزيز وتهديداتِها بقوله: ﴿**مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ (سورة يوسف: ١٢/٢٣)، فنحن نلاحظ ههنا حالًا يعكس مدى الإخلاص وصدق المحبّة لله تعالى، فسيدنا يوسفُ الذي يصوّره القرآن رمزًا للعِفَّةِ، كان قد أيقنَ بأنَّه إنما يتخلَّص من هذا الأمر بالالتجاءِ إلى الله، وهذا ما حصل فعلًا، فما خابَ ظنُّه ولا كَذَبَ رجاؤُه.

وسيدنا موسى عليه السلام لمَّا تردد قومه وتساءلوا في ذبح البقرة بقولهم ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٦٧) قابلهم بقوله: ﴿**أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٦٧).

فمن كان ذا معرفة بالله لا يسمى "جاهلًا" مهما قَلَّ نصيبه من العلم،

ولكن من لم يَعرِف اللهَ فإنه "جاهلٌ" مَهْمَا كان غزيرَ العلم، فهنا يُسنَد الاستهزاءُ إلى نبيٍّ من الأنبياء وهو يستعيذ بالله من ذلك؛ فإنه ليس من الممكن قطعًا أن يَصدُر الاستهزاء من نبيّ؛ لأن ذلك ديدنُ الذين لا يعرفون الله.

والحقّ تعالى يُعَلِّم نبيَّه بلسان القرآن أن يقول: ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٩٧-٩٨).

ومن جانب آخر يوصيه ﷻ في سورتَي الفلق والناس بالاستعاذة من جموع الشياطين إلى الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۞ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (سورة الفلق: ١١٣/١-٥)، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ ۞ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (سورة النَّاس: ١١٤/١-٦).

٣- الاستعاذة نداء إلى تفويض الأمور إلى الله تعالى

يروي معاذ بن جبل وغيرُه من الصحابة الكرام رضي الله عنهم حادثة شاهدوها عند الرسول ﷺ، في حديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من المحدّثين:

اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**" فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ"(٢٢).

وهذا الرجل أساء الأدب مع الرسول ﷺ، ومن المحتمل أنه كان في

(٢٢) صحيح البخاري، الأدب، ٧٧؛ صحيح مسلم، البر، ١١٠؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٥٤.

قلبه نفاق أو أنه لم يَفهم كنهَ هذا الأمر، مع أن غرض الرسول ﷺ كان مختلفًا تمامًا، حيث كان يريد أن يبعده عن هذا الجوِّ الخانق الذي يعيشه، بمعنى أنه ﷺ:

كان يقول له: إنك إذا قلت هذا القول تكونُ قد فوَّضْتَ أمرَك وأمرَ الشيطان إلى الله، وتنبه! إن أنواع الانتقام التي تحيكها في خيالك تجاه هذا الرجل الذي غضبتَ عليه إنما هيَ ستؤثِّر فيك، وفي نهاية المطاف سيَرجع ضررُها إليك لا إليه، وفي المقابل إذا فوَّضْتَ الأمرَ إلى الله فإنه سينتقم لك انتقامًا لن تَقْدِر على مثله ولو عُمِّرتَ ألف عام، فلذلك عليك أن تستعيذ بالله.

إن الرسول ﷺ بقوله هذا يذكِّره بما يلي: أحيانًا يتخاصم اثنان ويترافعان، ولا يُدْرَى مَن المُحِقُّ منهما ومَن المُبْطِل؟ ففي مثل هذا يكون الأنسبُ تفويضَ الأمر إلى الله تعالى، فقولُ المرء في هذه الحالة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" يعني: "أعوذ بالله من شرِّ الشيطان، ومن أن أتَّخِذَ قرارًا خاطئًا، أو أنحازَ إلى أمرٍ بغير حقٍّ...". فقوله هذا سيَصبُّ الماء على هذا اللهيب الشيطاني الهائل...

والرسول ﷺ ضمنَ ذلك يشير إلى نقطةٍ مفادُها: إنك بما تملك من القوّة والطَّاقة والجبروتِ تتجاسَرُ وتُقْدِم على شَجِّ هامة خصمك، والحالُ أنك مهما كنتَ قويًّا فالله أقوى منك، فالتجِئْ إليه ﷻ واسْتَجِرْ به.

فهذا الرجل -الذي يعاند تجاه هذه الجملة المباركة التي تَصْدُر من الرسول ﷺ، والتي تحتوي كلَّ هذه المعاني السامية- سيُحْرَم من ذلك كلِّهِ، ويصبحُ مغلوبًا ومقهورًا أمام نفسِهِ وشيطانِهِ.

٤- الاستعاذة: الملجأ الوحيد تجاه كلّ شرٍّ وشرّير

أخرج مسلم والترمذي عن خولة بنت حكيم أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: "**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: "أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ"، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذلِكَ**"(٢٣).

هذا الحديث يلفت أنظارَنا إلى النقطة التالية: هناك -من الملإ الأعلى إلى أسفل سافلين- صراع دائرٌ بين الأشرار والأخيار، وبين الأرواح الخبيثة والطيبة، وبين الشياطين والملائكة، فبينما الأشرارُ يَسْعَوْن للإضرار بالإنسانية يَكِدُّ الأخيارُ لخيرها، وفي حين أن الأشرار يُضِلّون الإنسانَ عن طريق الهدى؛ يدعوه الأخيار إلى الطريق المستقيم، فأينما ذهب المؤمن وحيثما حَلَّ فعليه أن يَلجأ إلى الله ويستجيرَ به من شرّ الجنّ والشيطان، ومن شرِّ الحشرات والهوام، لأن هذا يعني الابتهالَ إلى الله تعالى ليتكلَّل هذا الكفاح في نهاية المطاف بالتوفيق والنجاح.

يُروى أن أبا أمامة الباهلي ﷺ كان جالسًا في المسجد مهمومًا حزينًا، مكدَّرًا كسيفَ البال منحني الرقبة، فسأله الرسول ﷺ: "**يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟**" قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "**أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللهُ ﷻ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟**" قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "**قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**"، قَالَ أبو أمامة ﷺ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللهُ ﷻ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي(٢٤).

(٢٣) صحيح مسلم، الذِّكْر، ٥٤-٥٥؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٤٤؛ سنن ابن ماجه، الطب، ٤٦.

(٢٤) صحيح البخاري، الدعوات، ٣٦؛ سنن أبي داود، الوتر، ٣٢ (واللفظ لأبي داود).

إن كلَّ واحدٍ من هذه الأمور لَمِن الجواهر الفريدة التي تُعبّر عن حقائق عظيمة في غاية الأهمّية، فكأن الداعي بهذا الدعاء يريد أن يقول: اللهم إنَّ هناك كثيرًا من الناس لم يُضَحُّوا بحياتهم في مواطنَ يجب عليهم التضحية بها فيها، لكنهم اضطرُّوا في نهاية الأمر أن يُضَحُّوا بها وهم صاغرون، فأعوذُ بك اللهمَّ أن أضحِّي بحياتي هكذا بِذِلَّة... وكم من أناس كان بإمكانهم أن يُنفِقُوا أموالهم وهم أعزّة فيحافظوا على عزّتهم، لكنهم لم يفعلوا ذلك فسُلِبَتْ منهم أموالُهم عنوةً، فأعوذ بك ربي من هذا أيضًا، وأعوذ بك من أن يغلبني أعدائي... فهذا معنى الدعاء الذي وصَّى به الرسولُ ﷺ سيّدَنا أبا أمامةَ الباهلي ﷺ.

وفي القرآن الكريم مئات من الآيات تدل -دلالة واضحة أو خفية، على سبيل الصراحة أو الإشارة أو الرمز- على التعوذ بالله من شرِّ الشيطان والنفسِ ونوائب الدهر وكثيرٍ من الحوادث التي لا نعلم حِكمتها، ولن نسردَ كلَّ تلك الآيات حتى لا يؤدّي ذلك إلى التطويل بل سنجتزِئُ بما ألمَحْنا إليه، ونحاولُ بيانَ ما في الاستعاذة من الدقائق والنُّكَتِ فنقول:

٥- الاستعاذة، وحاجاتُ الإنسان الممتدَّةُ إلى الأبد

إن الإنسان كائنٌ تمتدُّ حاجاته إلى الأبد؛ فكما أنه يطلبُ زهرةً واحدةً فهو يطلب ربيعًا أيضًا، فهل -يا ترى- ستَشْبَع رغباتُه بالحصول على الربيع؟! إنه عند حصولِه على الربيع سيطلب الجنةَ، وهو لن يرضى بالحصول على جنة مؤقَّتة، إنه يطلب الخلود فيها، ولكن خلودًا في سعادة، إلا أنه بعد مرحلةٍ ما لن تُشبعه هذه ولن تشفيَ غليلَه، فسيطلب مشاهدة الحقّ تعالى؛ فكلُّ ما يُمنَح للإنسانِ يلفت نظرَه ويفتَحُ أفقَهُ إلى ما وراءه مما هو أكبر وأكثر، فيشرعُ هو بدورِهِ بالتَّطلُّعِ والنظرِ إلى ما وراء ذلك؛ وهكذا دواليك أبدًا...

فالإنسان كائنٌ تتوالى طلباتُه، ولكنه مع هذا الشَّرَهِ ضئيلُ الإمكانات محدودُ الوسائل، فإمكاناته منحصرةٌ بما تطالُه يداه؛ حتى إنه قد يعجزُ عن بعض الأمور الخاصة بهذه الدائرة؛ فيُغلَب على أمره؛ فماذا على إنسان كهذا..؟! فمهما قال القائلون، فالطريق الأنسب والمعقول هو أن يقول: إنني ألتجئ إلى عناية الله، فالله تعالى يجعلنا نُعَبِّرُ عن هذا المعنى بأن نقول حينما نبدأ بتلاوة القرآن: "أَعُوذُ بِاللهِ".

٦- الاستعاذة اعتراف للإنسان بعجزه

إن الاستعاذة هي -في أحَدِ جوانبِها- اعترافٌ للإنسان بعجزِهِ، والإنسان المعترِفُ بعجزِهِ يتوجَّهُ بقلبِهِ المنكسِرِ إلى الله تعالى، فحينئذٍ تميط الرحمةُ الإلهية اللثامَ عن وجهها، فترتَسِمُ البسمةُ على مُحيَّا هذا الإنسان الذي هو بِأَمَسِّ الحاجة إلى الشفقة والرحمة، فهذا الإنسان المشرَّف بقربٍ كهذا سيُدْرِك معنى ما يُروَى أن داود عليه السلام قال: أَيْ رَبِّ أَيْنَ أَلْقَاكَ؟ قَالَ: "تَلْقَانِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم"(٢٥).

٧- الاستعاذةُ تخليةٌ وتزكيةٌ للقلب

لا بُدَّ لإحراز الإنسان مرتبةَ الطاعة التامّة من أن يَطرُدَ الشيطانَ المتربعَ على عرش قلبه، ويهيِّئَه لله تعالى، والإنسانُ إذا لم يَطرُد الشيطانَ مِن قلبه، ولم ينظِّف ضميرَه، ولم يزيِّن عالَمَه الداخليَّ؛ يكون ما يقرؤه من القرآن خارجًا من قلبٍ وَسِخٍ ولسانٍ دَرِن، فمن كان كذلك فلا بدَّ له من القيامِ بعملية التخلية والتزكية، وهذا ما يتحقَّق بالاستعاذة، فنحن حينما نقول: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" نفكِّر في هذا المعنى العُلويّ، وبذلك ننظِّفُ القلبَ ونُنَقِّي اللسان، ونقول هذه الكلمةَ المباركةَ ونحن نؤمنُ بقوةِ تأثيرِها.

(٢٥) البيهقي: الزهد الكبير، ص ١٦٢.

إن القلب بيتُ الله، والسلطانُ يَنزِل إلى قصره في جنح الليالي، والرسولُ ﷺ يوصينا إذا أوى أحدنا إلى فراشه بأن يتوضَّأ، ويقرأ الدعاء المعروف، ويتوجَّهَ إلى الله، ويتعوَّذَ بالله من شرِّ الشيطان، ويقرأ "المعوِّذتين"، ذلك لأنه من المحتمَل أن ينزل سلطانُ قلوبنا في تلك الليلة إلى بيته، فإذا كان القلب منغلِقًا وسخًا ولم يُنَظَّفْ لله، فذلك مستحيل ألبتة، يقول العارف بالله إبراهيم حقي رحمه الله:

القلب بيت الله، فنظِّفْه مما سواه

حتى ينزل السلطان إلى قصره في جنح الليالي

وفي الحديث: "**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: "مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**"[٢٦].

لا ندرك كنهَ هذا النزول، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يشرِّف قلوبنا بنزوله إلا إذا جهَّزْناها له وأعدَدْنا العدّة لذلك.

إن الله تعالى أعدّ لنا الجنةَ، وسمَّاها دار السلام، فكأنه تعالى يقول لنا: "إنني أعددتُ ذلك المكان وجهزْتُه للطاهرين والنظيفين، وبَرَأْتُ فيه حورًا مقصوراتٍ لم تقع عليهن عيونُ الإنس ولا الجان، ولي أيضًا قصرٌ منيفٌ هو قلبُكَ أيّها المؤمن، فهل تحافظ لي على نظافة قصري ونقائِهِ مثلما أحافظ لكَ على نظافةِ الجنة ونقائها؟!

هناك أثرٌ مشتهر على الألسنة، يُروَى على أنه حديث قدسي: "مَا وَسِعَنْنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ"[٢٧].

(٢٦) صحيح البخاري، التهجد، ١٤؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٦٨.

(٢٧) العجلوني: كشف الخفاء، ٢/٢٣٠.

إنَّ الله تعالى جعل القلبَ مَعْكِسًا ومرآةً لتجليّاته، واتخذه لنفسه عرشًا بكيفيَّةٍ لا ندرك كُنْهَها، إنه حَفِظ دارك ومأواك (الجنة) من الشرورِ والأشرارِ، فهلّا حافظتَ على نقاوةِ وطهارة قلبكِ الذي هو بمثابة بيتٍ له ﷻ.

فالاستعاذة ستحقّقُ هذا النقاءَ وستحافِظُ على هذه الطهارة، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه ينفثُ في كفَّيه بسورة الإخلاص والمعوّذتين جميعًا ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده"[٢٨]، وهكذا كان يتعوَّذ من كلِّ شيءٍ بالله، وكأنه يقول: لا يمسَّنّ الشيطانُ جسمي، ولا يدخلنَّ في قلبي.

يقول ﷺ: "**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ اٰدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**"[٢٩]، وكأنه يتَّخِذُ الكريات الحمراء والبيضاء مَركبًا، فيَنْفُذُ عبرها إلى قلب الإنسان، ويبثُّ فيها الوسوسةَ، وبذلك يُعَكِّرُ صفوَ القلبِ الذي هو محطّ التجليات الإلهيّة، فبسبب ذلك ينظر الإنسان إلى كلِّ ما حوله مما يُذَكِّر بالله، بنظرٍ عكرٍ وضبابيٍّ، وفي النهاية يتراءى كلُّ شيء في ماهيّتِهِ عَكِرًا وضبابيًّا، فالله تعالى يأمرنا بالاستعاذة ويقول: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٧/٢٠٠) (سورة النَّحْلِ: ١٦/٩٨) (سورة غَافِرٍ: ٤٠/٥٦) (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٣٦) ويذكر الاسم الشريف: "الله" الذي هو الاسم الخاص بالذات الإلهية ويتضمَّن سائرَ أسمائه الحسنى ويشملها، ولا يقول: "استعِذْ بالرحمن، أو استعِذْ بالرحيم، أو بالقدوس...".

٨ - الاستعاذة أمام نوعَي الجهاد

والآن لنذكُر نكتة لطيفة:

(٢٨) انظر: صحيح البخاري، الطب، ٣٨؛ سنن الترمذي، الدعوات، ١٤٣؛ سنن أبي داود، الأدب، ١٠٨.

(٢٩) صحيح البخاري، بدء الخلق، ١١؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٣-٢٤.

إن لكم صنفين من الأعداء، ولكم تجاه هذين الصنفين نوعان من الجهاد:

فأولهما: "الجهاد الأصغر"؛ وهذا النوع من الجهاد يكون تجاه أعداء مادّيين يواجهون إيمانكم ودولَتكم ووطنكم، ويعملون على إزالة وجودِكم المادّي، ونَهْبِ ثرواتكم، واستعمار بلادكم، فهؤلاء يجابهونكم ببنادقهم ومَدافعهم ودباباتهم وطائراتهم، فكلما طلبتم النصر من الله تعالى أمام هؤلاء الأعداء؛ جاءكم نصرُه وأَرسَل ملائكتَه وهَزم أعداءَكم:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأَنْفَال: ٨/٩-١٠).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٢٣-١٢٦).

نعم، إنكم طلبتم النصر من الله، والله أمدكم بألف أو بثلاثة آلاف أو بخمسة آلاف من الملائكة.

وفي معركة "جَنَقْ قَلْعَة" (الدَّرْدَنِيل)، وبشهادة الضابط الإنكليزي "هاملتون *(Hamilton)*": أرسل الله الملائكة على صورة رجال معَمَّمين، وجَعَلَهم يركضون أمام حفنةٍ من جيش المسلمين المُثخَنِ بالجراح، دَحَرَ بهم جيشًا عرمرمًا جرَّارًا لدولةٍ متغطرسةٍ مثل الإنكليز، فحالوا دون عبورِهم من مضيق الدَّرْدَنِيل؛ فلما جاشت قلوب المفعَمين بالإيمان بنداءِ: ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾ (سورة البقرة: ٢/٢١٤) أرسل الله ملائكتَهُ ونَصَرَ عِبَادَهُ.

وثانيهما: "الجهاد الأكبر"؛ وفي هذا النوع من الجهاد هناك حاجة إلى سندٍ أقوى؛ فالجهاد الأكبر نقوم به تجاه الشيطان الذي يتسلَّط علينا وتجاه النفسِ الأمارةِ بالسوء، وفي كفاحنا هذا الذي نُجريه أمام النفس والشيطان نُزيحُ كلَّ الوسائطِ ونلتجِئُ مباشرةً إلى الله تعالى؛ لأن هذا الكفاحَ ليس من النوع الذي يُقَدَّم تجاهَ العدوِّ الذي يحتلُّ البلاد، بل هو كفاحٌ تخوضُ فيه تجاه الشياطين والأشرارِ الذين يحتلُّون القلبَ الذي هو "بيت الله".

كم من فئة قليلة ضعيفةٍ مادّيًا غَلبت فئةً كثيرةً أقوى منها بإذن الله وعنايته وبقوة صِلَتهم بربهم في الجهاد الأصغر، كذلك لن يُحرِز الإنسانُ النصرَ في هذا الجهاد الأكبرِ أمام النفس والشيطان، ولن يتخلَّصَ من الهزيمة أمامهما إلا بعناية الله ونُصرَتِهِ، فالطريقة المُثلى في هذا الجهاد هي الاحتماء بالحق ﷻ والالتجاءُ إليه مباشرة، و"التعوُّذُ" -بالفعل- عنوانٌ لهذا الالتجاء والتوجُّهِ إليه تعالى بشعورٍ ووعيٍ...

٩- الشيطان الرجيم بين الماضي والحاضر

إن الحقَّ ﷻ يَصِفُ الشيطانَ بـ"الرَّجِيمِ" أي المطرود من باب الحضرة الإلهية، ومن هذا التعبير نفهمُ أنه في سابق عهدِهِ كان من المقرَّبين إلى الحضرة الإلهية ومن المطيعين، لأنه لو لم يكن مقبولًا لدى الحضرة الإلهيّة قبلَ ذلكَ لما كان يُتصوَّرُ كونه من المطرودين، والشيطانُ راحَ ضحيةَ كبرِهِ وغرورِهِ، فأدَّى عصيانُه وتمرُّدُه إلى رَجْمه، فطُرِد من الجنة التي أعدَّها الله لعبادِهِ المؤمنين، أي إن الله ﷻ طَرَد الشيطانَ من الجنَّةِ حفاظًا على عبادِهِ وسلامتِهِم، ولكن يا تُرى هل نَقَّيْنَا قلوبَنا -التي هي مرآةُ الصمدانيّة- من شرِّ الشيطانِ وَرِجْسِه؟! فهذا هو لبُّ القضية وبيتُ القصيد، وإنّ الاستعاذةَ لَتُذَكِّرُنا بهذا على الدوام.

"اَلشَّـيْطَان": هذه الكلمة مُعَرَّفة بأداة التعريف، وذلك يعني أنه شـيطانٌ معـروفٌ ومعهـودٌ، ذلك الشـيطان الذي عـادى آدم عليه السـلام وما زال يعادِي ذرِّيَّـتَـهُ إلى اليوم.

نعم، إن الشـيطانَ في الماضي، بتلك السـلطنة التي أسَّسـها لِحِسـاب الكفـرِ والإلحـادِ، ولا يـزال يفعـل ذلـك في الحـال وسـيواصل ذلك في المسـتقبلِ، وسـيبقى إلى قيام السـاعة يعمـلُ جاهِدًا لِتحقيـق هذا الهدف، وفي كلِّ مرحلةٍ سيجدُ له من يمثِّلُون دعواه، ولن يألوَ جهدًا في سبيل هدمِ النظـامِ الإلهـيِّ، إنـه عدوكم القديم، ذلك الشـيطان الذي تَسـبَّبَ في طردِ أبيكم من الجنة، فأنتم تعرفونه جيّدًا، ولكن اعلَموا أنه سـيحاول أن يفعلَ بكـم مثـلَ ما فعـل بأبيكم، فَحَذَارِ مـن أن تغفُلوا عن ذلك فتتَّخِـذُوهُ وليًّا، بـل تَعوَّذوا بـالله منه، وهذا المعنى على ما إذا كانـت "أل" التعريف للعهد الخارجـي، وأمـا إذا كان للجنسِ فيكون المعنى حينئذ: أعوذ بالله من شـرِّ كلِّ شيطانٍ إنسيٍّ وجنّيٍّ؛ مِمَّن أَخرَج سيدَنا آدم من الجنة، ومَن أغوى قومَ سـيدنا نوح، ومَن أطغى قومَ سـيدنا هود، وشـرِّ سـائر الشياطين الذين هم وراء كلِّ ضلالة ورذيلة وشناعة في عصرنا هذا.

ج. أحكام فقهية تتعلق بالاستعاذة

وأمـا الأحـكام الفقهيـة المتعلقة بالاسـتعاذة، فمن العلمـاء من يرون الاسـتعاذة بعـد الانتهاء من تلاوة القرآن وهم قلّـة، والجمهور يرونها قبل البَدْءِ بها، ولكلٍّ دليلُه ومستنده.

وللقراء والعلماء آراء مختلفة في صِيَـغِ الاستعاذة، نُجمِلُها على النحو التالي:

١- "أَعُـوذُ بِـاللهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ الرَّجِيم"، بها يتعوّذ جمهورُ السَّـلَفِ من الصحابة والتابعين.

٢- "أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم"، وهي ما اختاره بعضهم.

٣- وبعضهم كان يتعوذ بـ"أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ".

فالتعوُّذ بالله من شرِّ الشيطان في كلِّ الأحوال؛ في الصباح وفي المساء، وعند النوم وبعد الاستيقاظ، سيكون بمثابةِ وثيقةٍ للعيش في أمان، والوصولِ في أمنٍ إلى الجنة دارِ السلام.

والاستعاذةُ علامةُ الالتجاءِ إلى الله، وتقديمِ المعذِرَةِ، وأمارةُ الإخلاص، والقرآن المعجزُ البيانِ يوصينا بأن نقول: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، وأن نبحث عن مدى طاقتنا وحجمنا تجاه نوائب الدهر، وأن نتعلّم المهارات التي يتطلَّبها هذا الأمر، ويسوقنا إلى أن نتصرَّف وكأننا مهيضو الجناحِ كسيفو البالِ، وأن نحلِّق إلى آفاق الكمالات الإنسانية بجناحِ العجز والضعفِ، ونفهمَ أننا "لا شيء" حتى نعتمدَ عليه ونستعينَ به في كلِّ خَطْبٍ ونازلةٍ.

البسملة

والآن لنحاول أن نَعْرِض معاني البسملة الشريفة:

إن البسملةَ فاتحةُ كل خير، وهي عبارةٌ عن خيطٍ نورانيٍ دُلِّيَ من العرش الأعظم، فمن يُمسِك به يستطيع أن يتحدّى الكائنات كلها، لأن البسملةَ تعني الثقةَ بالله، والاتّكالَ والاعتمادَ عليه تعالى، إن بابَ هذا العالَم فُتِح بـ"بِسْمِ اللهِ"، وأُنْشِئَت الكائناتُ بـ"بِسْمِ اللهِ"، وكلُّ الأحداث تقعُ بـ"بِسْمِ اللهِ"، والقيامة ستقومُ بـ"بِسْمِ اللهِ"، والحشر والنشور والجنة والنار ستتأسَّسُ بـ"بِسْمِ اللهِ"، والمؤمنون إذا قالوا "بِسْمِ اللهِ" ستُفتَح لهم أبواب الجنان، وهناك سيرى المؤمنون الذات الإلهية الوارد ذكرها في ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، و كما بدأَ العالَمُ بـ"بِسْمِ اللهِ" فإنه سينتهي بـ"بِسْمِ اللهِ".

أ. الباء

إن البسملة تبدأ بحرف الجر (الباء)، وحرف الجرِّ يجرُّ الاسمَ الذي يدخل هو عليه، وكلمة "اسم" هنا مجرور بالباء وعلامةُ جرِّهِ الكسرةُ، والكسرةُ والانكسار من جذر صرفيٍّ واحد، وكأن الكسرةَ هنا في بادئِ الكلام تُعلِّمنا الولوجَ إلى بابه تعالى بقلبٍ منكسرٍ، والحقيقةُ أنه لا بدّ لنا ونحن نباشِرُ أيَّ أمرٍ ذي بالٍ أن تكون قلوبُنا منكسرةً تجاهَ الحقّ تعالى وأن نتبرَّأ من حولِنا وقوَّتِنا معتمدين على حولِهِ وقوَّتِهِ، حتى يكون عجزُنا وفقرُنا بمثابةِ شافعٍ ومُسْتَدْعٍ لحولِهِ وقوَّتِهِ...

وللباء معانٍ، منها: "المصاحبة"، وباءُ المصاحبةِ لغةً: هي التي يحسنُ في موضِعِها (مَعَ)، فالإنسان إن كان يريد معيَّةَ اللهِ ورسولِهِ والقربَ منهما فليقل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ومِن معانيها: "الإلصاق"، فالإنسان بالبسمَلَةِ يلتصِقُ ويتشبَّثُ برحمانيّة الله ورحيميته، وهذا هو كمالُ المقصودِ، وكلُّ السرِّ يبدأُ بنقطةِ الباءِ، وينتهي عند ميمِ "الرحيم".

وإذا حذفنا نقطة الباء فسيخطر على البال خطٌّ كالألِفِ يمتد من الأزل إلى الأبد، والألِف عند الصوفية ترمز إلى الله تعالى، وقبل أن نضعَ نقطةً تحت هذا الخطِّ فنجعلَه باءً، كان ذلك النور العظيم اللامتناهي غيرَ معروف أو معثورٍ عليه؛ لأنه لم يكن هناك ظلٌّ في تلك المرحلة، إذ كل شيء يُعرف بضده.

والنقطة ترمزُ إلى سيدنا محمد ﷺ، والرسولُ ﷺ نواةٌ وخُلاصةٌ للكائنات، ولولاه ﷺ لما أمكننا معرفة الله، والله تعالى كان يَرَى ذاته في ذاته، ويَعلَم ذاتَه بعلمه الذاتي، ولكنه تعالى أراد أن يُرَى بعيون أخرى،ويُعرَفَ مِن قِبَلِ آخرين، ولذلك خَلق نورَ سيدنا محمد ﷺ وخَلقَ الكونَ من نورِهِ، وفي نهاية المطاف ظهر الإنسانُ وبرز للعيان كثمرةٍ للكون، وهذا هو مصداقُ المقولة المشهورة: "إن الله لَيُرى في المرآة المحمدية دائمًا"، إن المرآةَ وكلَّ ما يَتراءى فيها لَيُوجَد في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وأوَّلُ اسمٍ في البسملة هو لفظُ الجلالة: "الله"، فنحن نبدأُ أعمالَنا باسم الله تعالى، و"الرحيم" في آخر البسملة هو من صفاتِ الله تعالى، إنه صفةٌ مشتركةٌ بينه تعالى وبين حبيبه صلوات الله عليه، فلقد وَصف حبيبَهُ الكريمَ في القرآن بصفتِهِ هو، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يعني بذلك سيِّدَنا محمدًا ﷺ.

وهو تعالى إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧/٢١) فإنه يؤكِّد رحيمية سيدنا محمد ﷺ الذي بُعث رحمةً للعالمين، ففي البسملة يُتحدَّث عن الله، مع الإشارة إلى سيدنا محمد الذي عرَّفَنَا بالله.

وللباء فِعلٌ يتعلَّقُ هو بِهِ، والحقيقة هي أن الكونَ كلَّه عبارةٌ عن أفعال، وهذا الفعلُ مقدَّرٌ مقدَّمًا أو مؤخَّرًا، فنحن نأتي بلفظِ الجلالة "الله" في صدرِ الكلامِ، حيث إن الله تعالى كان ولم يكن فعلٌ، فالله كان "فاعلًا" بذاته، ويمكن أن نقول: إن أفعالَهُ كانت مُصاحِبةً لذاته، فحينما يَصِلُ الأمر إلى هذه النقطة فإننا نُمْسِكُ عن الكلام.

والمتعلَّق المقدر هو "أبدأ"، ويمكن أن يقدَّرَ المتعلَّقُ: "ابتدائي"؛ فإن قدرناه: "أَبْدَأُ" فالفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره: "أنا"، وإن قدرناه: "ابْتِدَائي" فالفاعل هو ياء المتكلم.

ب. كلمة "اسم"

هي مِن "سَمَا - يَسْمُو" أو من "وَسَم - يَسِمُ"، فعلى الأول يكون معناه: الارتفاع والعلوّ؛ والله تعالى متعالٍ بذاته وأسمائه، وهذا مِصْداقُ قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (سورة الأعراف: ١٨٠/٧).

وعلى الثاني يكون معناه: العلامةُ والأمارةُ، فلا تُطلَقُ لفظةُ "الله" على غيرِهِ تعالى، فإذا أطلقت هذه اللفظة فالذي يتبادر إلى الذهنِ هو الذات الأَجَلُّ الأعلى الذي يَحْكُم الكونَ والذي نعرِّفه بـ"واجب الوجوب".

وينبغي لنا أن نقفَ قليلًا عند كلمة "اسم"؛ فالله تعالى يَذكُر هذه الكلمة قبل اسمه تعالى ليقول: "بسم الله" ولا يقولُ -مثلًا- "بالله"، مع أنَّ لِقائلٍ أن يقول: كان بالإمكان أن يؤدَّى هذا المعنى لو قيل: "بالله"،

إلا أنه لو قيل -بدلًا عنه-: "بالله" لَالْتَبَس بالقَسم، والحالُ أنه ليس المرادُ هنا القَسَم، بل المرادُ والمقصودُ هو الارتقاءُ من حضيض ظلمات الجسمانية إلى مستوى الروحانيات ونورانياتِ القلب، وذلك بعناية الله والتشبثِ بأوامره ﷻ، بمعنى أننا نقول هذه الكلمة ونتشبَّثُ بها للارتقاء والصعودِ بها إلى الكمالات الإنسانية.

وحينما تُطلَق كلمة "اسم" يتبادر إلى الذهن جميعُ أسماء الله الحسنى، ولله تعالى أسماءٌ بعدَدِ تصرُّفاتِهِ في الكون، فكأنَّ هذه الأسماءَ التي تمثُلُ أمام أنظارِنا بِذِكْرِ هذه الكلِمَةِ، قد تعلَّقَتْ النيّة بها أثناء ذكر لفظ الجلالة "الله"، وكأنّها كلُّها وردَ ذكرُها بتمامِها، وذلك على قدرِ سَعةِ النية واستيعابها؛ أي إنَّ من يقول: "بسم الله" يكون كأنه نوى أن يَذكُر: "الملك، القدوس، العزيز، الرزاق، الخالق... وغيرها مما لا يُحصَى من أسماء الله واستَشفَعَ بها... وبما أن كل الحركات والمَطالبِ منوطةٌ بهذا الاسم؛ فإن القوة الخارقة اللامتناهية التي في البسملة جديرةٌ بالاهتمام، وتحمِلُ دلالاتٍ عميقةً، فالذي يقول: "بسم الله" يكون كأنه ذكر الأسماء الحسنى كلَّها واستشفَعَ بها في نَيل ما يريد.

والإنسان الذي يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يكون في الوقت نفسه في مقام "الغَيبة"، أي في مقام "الفَرْق"، أي في مقامٍ يتحدث عن الله بـ"هو"، ففي مقامٍ كهذا حينما يقول: "بسم الله" تَحُولُ كلمة "اسم" بين الإنسان وبين لفظِ الجلالة.

إن الكون عبارةٌ عن تجليات الأسماء الإلهية، والذي يتموَّجُ في كلِّ مكانٍ هو أسماء الله ﷻ، وحينما يُقال: "اسم"، فكلُّ هذه التموُّجات تتبادرُ إلى الذهن، فنحن نُعَبِّرُ بلفظِ الجلالةِ عن هذا المعنى اللاهوتيّ المتعلِّقِ بالألوهية.

فنحن عبارةٌ عن النقطة التي تحت باء البسملة، سئل الشِّبلي: "هل أنت الشبلي؟" فأجاب: "لا، بل أنا نقطةٌ تَسْتَظِلّ تحت خطٍّ مستقيمٍ نورانيٍّ، وأنا مرآة لوجوده ﷻ".

ج. لفظُ الجلالةِ الأشرف: "الله"

لا يروق لي القولُ بأن هذه اللفظة أعجمية نُقِلَتْ إلى العربية، ولا يطيب لي البحث عن أصلٍ لها حسبَ علمِ الاشتقاقِ كأنْ يُقال: إنها مأخوذةٌ من هذا الجذر أو مشتقة من ذاك... صحيح أن من العلماء من أرجعها إلى بعض الكلمات وحاوَلَ أن يجد لها أصلًا، ولكني -وأنا العاجز الفقير- أقول حسبَ رأيي المتواضع: "كما أن ذاتَ الباري ﷻ أزليّةٌ؛ فكذلك اسمه من الأزل هو "الله"، وليس من المناسب البحثُ عن أصلٍ لكلمةِ: "الله"، ولكن هناك كلمات تدور في فَلَك هذه اللفظة الجليلة، وكأنها تقول: أنا لي وجهُ شَبَهٍ بهذه الكلمة، ونحن بدورِنا سنقوم بعرضِها وسردِها:

إن كلَّ شيءٍ منوطٌ بالله، وكلُّ شيءٍ قائمٌ بالله، ونورُ وجهِ الكائنات وضياؤُه لفظةُ: "الله"، وكلُّ مكانٍ لا توجد فيه كلمة "الله" فسيكون ما فيه من العلوم والمعارف عبارةً عن خيالٍ وسرابٍ، وستُصْبِحُ ركامًا من أفكارٍ غيرِ مفهومةٍ، ومستعصيةً على الحلّ، فدخولُ كلِّ العلوم في القرن العشرين في مأزقٍ وطريقٍ مسدودٍ إنما هو بهذا السبب، وكلُّ العلوم والتقنيات والفنون التي لا تستند إلى كلمة: "الله" مسدودةٌ وغير نافذة، وتنطوي على عديد من التردّد والشبهات، ورجلُ العِلْمِ قد يسمّيها بأسماء مثل: "الفرضيّة" أو "النظريّة" أو أسماء أخرى، ويحاولُ أن يقدّمها للناس وكأنها معلومةُ الماهيةِ؛ ولكن الحقيقة أنها لم تُعرَفْ بعدُ لا بمعناها ولا بماهيَّتِها.

إن كلَّ شيءٍ في الكون يستند إلى حقيقةٍ، ولا بدَّ أن يكون في أساسِ كلِّ شيءٍ حقيقةٌ، ويجب أن يكون في أساسِ هذا الكون الرائع أيضًا حقيقةٌ كبرى يستنِدُ إليها ويجدُ بها معناهُ، وإنَّ صرحًا فنّيًا رائعًا مثل الإنسان الذي هو ثمرةٌ لشجرةِ الكون لا يمكن إسنادُهُ إلى بعضِ الفرضيّات، كأنْ يستند -مثلًا- إلى ما يسمَّى: "الأميبا" *(AMİP)* التي تعيشُ تحت البحار، ولا إلى الدِّيدان، ولا لرياح الصُّدفة، بل لا بد أن تكون وراء هذه التحفةِ الفنّيّة حقيقةٌ كبرى، وتلك هي ما تعبّر عنها كلماتُ: "الله"، "الرحمن"، "الرحيم".

وأودُّ هنا أن ألفتَ الأنظارَ إلى نقطةٍ؛ وهي أن هناك تياراتٍ علميةً نشأت في شَرْقِيِّ العالم وغربيِّه وشماله وجنوبه، وأن ثمَّةَ دُوَلًا قَطعتْ أشواطًا بعيدة في مجال العلوم والتكنولوجيا، ولكن عندما تنسدُّ كلُّ الطُّرُقِ فإن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله سيستنجدون بأولئك الذين تعلَّقت قلوبهم بالله والذين يحلِّقون بكلِّ مشاعرهم كالفراشة حول الإيمان به تعالى، ويؤمنون حقّ الإيمان.

وإذا كان هناك مَن يريد تنسيقَ العلومِ، فإن هذا إنما يتأتَّى بإسنادها إلى لفظةِ: "الله"، وحينَها ستكون العلوم والمعارف مستنِدَةً إلى حقيقةٍ، وستجدُ لونَها وصبغتَها الحقيقيّة.

إن "المؤمنين بالله" هم الذين سيوجِّهون العلوم والمعارف إلى مَجرًى جديدٍ، وسيؤسّسون العلومَ والمعارف على أسسٍ متينةٍ... فإن لم يتحقَّقْ ذلك ولم يُفهَمْ معنى الكون، فإن الله ﷻ سيدمِّرُ الكونَ ويبعثرُهُ، بسبب أنه لم يعُدْ معناه مفهومًا ولم يعد يُستخدَمُ في السبيل التي خَطَّها الله له...

إن الله المعبود بالحق والمقصود بالاستحقاق، إنه الموجودُ الوحيد الذي يستحقُّ العبادة...

والله محبوبٌ بذاته...

والقلوب بذكره تطمئن، وكل القلوب المنكسرة إذا وصلتْ إلى أعتاب بابه صُبَّتْ فيها السكينة...

والله هو العلي الأعلى، فليس لشرك المشرك أن يصل إلى مقامِ عزّه وعظمته...

إنه لا تدركه الأبصارُ، وهو متعالٍ علوًّا كبيرًا، وهو الذي يُدبّرُ الكونَ كلَّهُ... إننا لا نراه بأبصارِنا ولكنّنا نشاهدُ ونُعاين في كلِّ شيء آثارَه التي هي أبرز من كلِّ عيان وأنصعُ من كل ناصعٍ أو برهان... فندركُ أنه تعالى "مُختَفٍ من شدة ظهوره".

وهو ﷻ ملجأُ المنكسِرة قلوبُهم أجمعين، وهو منبعُ حيرةٍ للمؤمنين؛ فكلُّ مَن زادت معرفَتُهُ بالله سيغوص في بِحارِ الحَيرةِ...

والله ﷻ معبودُ كلِّ إنسان، إنه تعالى المعبود بحقٍّ لأنه هو: "الله".

والآن لنستخرجْ هذه المعاني من تلك الكلمات القريبة من لفظة الجلالة: "الله".

١- تحليل لبعض الألفاظ القريبة من لفظ الجلالة "اللّه"

أ. "أَلَهَ - يَأْلَهُ":

"أَلَهَ": بمعنى "عَبَدَ" لأنه تعالى هو المعبود، أي المتفرّدُ باستحقاق العبوديّة، و"أَلَهْتُ إِلَى فُلَان" أي سكنتُ إليه، إن الإنسان يسعى دائمًا للوصولِ إلى الكمالِ، وفي سبيل ذلك يعمل دونما كللٍ أو ملل، فيقطع المسافات الشاسعة، وإن الذي لم يَفقد إنسانيَّتَهُ ويحملُ بين جوانحه القلبَ والوجدان سيكدُّ ويكدح من دون توقُّف حتى يصل في نهاية المطاف إلى الكمال الذي قُدِّرَ له، والله ذو الكمال المطلقِ هو الذي سيمنحُهُ ويدلُّه على الكمال... وهذا الإنسان سيرتقي إلى مقام الأسماء، ومن مقام الأسماء

إلى مقام الصفات، ومن ذلك إلى مقام الشؤون الذاتية، وكلَّما ارتقى سيزداد حيرةً ودهشةً، وسيظلُّ مهرولًا حتى يَصِلَ إلى الكمال، وعندما يأذنُ اللهُ له بالنضجِ والكمال تنزل السكينة في قلبه، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد: ١٣/٢٨)، فالمحطَّةُ الأخيرة التي يلجأ إليها الباحثون عن الكمال هي الله، وبالتالي فهناك مناسبة بين لفظةِ "الله" وكلمةِ "أَلَهَ".

ب. "أَلِهَ - يَأْلَهُ"

منها فعلُ "أَلِهَ" بمعنى لجأ؛ يقال: "أَلِه الفصيلُ"؛ أي ولعَ بأمه، فكما أن هذا الفصيلَ يَجعلُ عجزَه وفقرَهُ شفيعًا فيلجأُ إلى أمِّهِ، حتى إن أمَّهُ تركله أحيانًا ولكنه لا يتلكَّأُ في اللجوء إليها مرارًا وتكرارًا؛ فكذلك الإنسان العاجزُ الفقير كسيرُ القلبِ مهيضُ الجناحِ المغلوبُ على أمرِهِ، يلجأُ إلى رحمةِ الله ورأفَتِهِ، والحقيقةُ أنه ليس هناك مَن يُستجارُ به فيعود بالنفعِ على المستجيرِ إلا الحقُّ ﷻ، فمعنى الالتجاء هذا مكنونٌ في لفظ الجلالة.

ج. "وَلَهَ - يَلِهُ"

"وَلَهَ" بمعنى تَحيَّر وذهبَ عقلُهُ، وهذه الكلمة تُعبِّر عن مقام الحيرةِ، والحقيقةُ أن كلَّ إنسانٍ إذا تجلَّى له نور التوحيد تأخذه الحيرة والاندهاش، إن بعض الناس لا يستطيع أن يتخطى جسمانيته، فيظلُّ سجينًا في قَفَصِ بَدَنِهِ ذي الجوِّ الخانِقِ الكئيبِ، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل، وهذا نوعٌ من الحيرة، في حين أن البعضَ الآخر يتخطّى مقام "الأسماء" ويكون على مشارفِ مقامِ الصِّفات، ولكنه لا يتسنَّى له الكشفُ عمَّا وراءَ ذلك، وهذا يكون أيضًا في "حيرة" ولكن من نوعٍ آخر... وأيًّا مَا كان نوعُ الحيرةِ فهذه الحيرةُ لونٌ من ألوانِ تجلِّي نورِ التوحيد... وهذا المعنى العظيم أيضًا مكنوزٌ في لفظ الجلالةِ "الله".

د. "لَاهَ - يَلِيهُ"

ومـن تلك الكلمات التي تَمُتُّ إلى لفـظ الجلالة بصلةٍ فعلُ "لَاهَ" أي احْتجَـبَ واختفـى؛ إن الله ﷻ لا يُـرَى بالعيـن، والحال أنه أظهـرُ من كلِّ ظاهـرٍ؛ فعـدَمُ رؤيَتِنا له إنما هو لكونه في ذروة الكمال أي لشـدَّةِ ظهوره، بالإضافة إلى أن الله تعالى ليسَ له ضدٌّ ولا ندّ؛ والشـيءُ إنما يُرى إذا كان له ضدّ ولم يكن مرتقيًا إلى درجة الكمال في مراتب الوجود، فالليل يُرى ويُـدرَك لأن لـه ضـدًّا وهو النهار، وكذلك الأمرُ بالنسـبة للنهـار لأنه ضدُّ الليل، والحرارةُ كذلك إنما يُحَس بها بالبرودة، والعكسُ صحيحٌ...

ذلـك الله الـذي إنما تتحقَّـقُ كلّ الأمور من الرؤية والسـمـع، والحياة والمـوت، والإيمـان والكفـر، والعـدل والظلم، وسـائرُ الأضـداد بتجلِّيه تعالى، والخير والشـر منه، فهل يمكن رؤيةُ الله الذي منه كلُّ شـيء وليسَ له ضدٌّ ولا ندّ! ولذلك نقول: "إنه مختفٍ مِن شِدَّةِ ظهورِهِ"، يدعوه أرباب القلـوب فـي مناجاتهـم قائلين: "يا من احتجبَ لشـدَّةِ ظهـورِهِ وخفيَ عن الأبصار لعظيمِ نورِهِ".

و"لَاهَ" يأتـي بمعنى "ارتفـع" أيضًا... فالمُشـرِكُ مهما اتَّخَذَ على وجهِ الأرضِ شـركاء لله، وجاوزَ حدَّهُ فقال: "إني سبحتُ في أجواء الفضاء فلم أعثر -حاشَا لله- على الله"(٣٠)؛ فالله الذي تَنزَّه عن الزمان والمكان، والذي يحكُمُ الكونَ كلَّه، والذي يقلبُ كلَّ شيءٍ في قبضةِ تصَرُّفِهِ كيف يشاءُ؛ لهوَ مرتفـعٌ ومتعالٍ عن كلِّ أنواعِ الشِّرْكِ والشركاء...

٢- خصوصيّة لفظ الجلالة

ومـن خصائـص لفظ الجلالة "الله" من التميُّزِ ما لا نَجِدُهُ في الأسـماءِ الأُخرى؛ فإنك إذا حذفتَ منهُ الهمزةَ يكونُ الباقي "لله"، وإذا حذفتَ اللامَ

(٣٠) يُحكى أن رائدَ الفضاء السوفيتي "يوري جاجارين" الذي يُعتبر أول إنسان تمكن من الطيران إلى الفضاء قال هذه المقولة. (الناشر)

الأولى يبقى "له" ويمكن أن يُحمل على معنى "لأجلِهِ تعالى"، وإذا حذفت اللامين مع الألف يبقى "هُ" أي: "هُو"، وهذا الضمير يمكن أن نشيرَ به إلى الله تعالى.

فلفظ الجلالةِ لفظ معجز بهذه الدرجة، فلنقف باختصار على هذا الحرف الأخير منه (هُ)، ثم لنعرِّجْ مرة أخرى على معناه بشكل عام.

إن "هُـ" (هُـوَ) بحدِّ ذاتِهِ معجزٌ، والإنسان حينما يقول: "هُـ" (هُو) يستذكر المعنى التالي أو إن استحضار المعنى التالي يجعله يقول: "هُ" (هو)، حيث إن العبد يقول: يا إلهي! أين أنا منك، فأنا المخلوقُ من ماءٍ مهين، وأنت المعبود بحقٍّ سلطانُ الأزل والأبد، فأنا لا أستطيع أن أخاطبك بـ"أنت"، بل إنما أناجيك بضمير الغيبة "هُ" (هو) في سياق التعبير عن معاني جميع أسمائك التي مَلأَت الكونَ، وإنما أشفي غليلَ صدري بأن أقول: "هُ" (هو).

والإنسان في كثير من الأحيان حينما يذكر اسمًا من أسماء الله تعالى، يستحضرُ علاقة ذلك الاسم بالموجودات ويأخذ بعين الاعتبار علاقةَ ذلك الاسم بنفسِهِ، فمثلًا: حينما يقول: "يا كريم" قد يستحضر إكرام الله ﷻ له ويقوله طالبًا إكرامَه، وحينما يقول: "يا مُحسِن" طالبًا إحسانَ الله تعالى، وحينما يقول: "يا جميل" يستحضر تجليات الله الجمالية، وهكذا قد تشوب الإخلاصَ هَناتٌ ولو إلى حدٍّ ما، في حين أنه حينما يقول: "هو" فإنه يكون قد تَخطَّى كلَّ الأماني والمطالِبِ، وأَعلَن أن الله تعالى هو المعبودُ المُطلَقُ لا لشيءٍ بل لأنه هو "الله"، وهذا سيشفي غليلَ صدرِه بحيث لا يدرك مدى الذوق الرفيع الذي يَشعر به هذا القائل إلا مَن سَبق له أنْ قال من أعماق أعماق ضميرِهِ: "هوووو"، فهذا اللفظُ له تأثيرٌ كبيرٌ على التربية الروحيّة.

وأيضًا فإن الله ﷻ يعرّفنا بذاته من خلال أفعاله وآثاره، ونحن بِدَورِنا نَعْرِفُهُ بِقَدْرِ تجلِّياتِهِ وآثارِهِ الموجودةِ لدينا، ولكن هذه المعرفة نسبية، وتُعدُّ معرفةً ناقصةً إذا قارنَّاها بالمعرفة الحقيقيّة، لأن الإنسان لن يتأتَّى له أن يُدْرِكَ ويستوعبَ كلَّ هذه الأفعال الجارية في الكون، ويحيطَ علمًا بفاعِلِها، من خلالِ عدسةِ ما أُسدي إليه من الألطاف والإحسانات، بل إنه سيُقَيِّم القضيَّةَ في إطارِ موازينِهِ الشخصيَّةِ، فالعبدُ حينما يستشْعِرُ بأنه ماثلٌ بين يدي الله ﷻ، الذي يُعرِّفنا بذاته من خلال آياته الآفاقيّة والأنفسيّة، فإنه يستحيي أو يُكسَفُ من التوجه إليه تعالى بلفظةِ الخطابِ: "أنت"، فيقولُ في مقام الغَيبة: "هو"، والواقعُ أنَّ كلَّ زفيرٍ وشهيقٍ منَّا عبارةٌ عن "هو"، أي إنَّ "هو" منبعُ حياةٍ لنا، ولا يمكن لنا مواصلة حياتِنا إلا بِهِ.

وهناك أمر آخر وهو: أن الإنسان بين يدي ذلك السلطان وأمام سلطنته العظيمة ينسى جوعه وعطشَهُ، وينسى كذلك كلَّ أنواع أبَّهَتِهِ وبهرَجَتِهِ، بل إنه ينسى كيانه ووجودَه، فيَصرِف نظرَه عن كلِّ شيءٍ آخر، فيوجهه إليه فقط، وهناك يقول: "هو"، فكلُّ شيءٍ ينمحي وينعَدِمُ مِن أمامِ نظراتِهِ مع كيانِهِ وذاتِهِ.

فنحن إذ نقول: "بسم الله"، نكون قد تَصوَّرنا وشاهدنا هذه المعاني...

د. الاسمان الجليلان: الرحمن، الرحيم

إن لفظة "الرحمن" من الصفات المشبهة الدالَّة على المبالغَةِ، وهي صفةٌ خاصَّةٌ بالله ﷻ؛ حيث إننا حينما نقول: الرحمن، فالذي يتبادَرُ إلى أذهانِنا هو الله ﷻ، فالله هو المقصود من قولِهِ ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (سورة طَهَ: ٥/٢٠) أو ﴿الرَّحْمَـنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: ١/٥٥-٢)، ومعنى الرحمن: الذي يرحمُ رحمةً لا نهائيَّة، والذي يغذّي بِنِعَمِهِ تغذيةً سرمديّة.

و"الرحيم" أيضًا من أسماء الله تعالى كـ"الرحمن"، لكن الرحيم صفةٌ لا تختصّ بالله تعالى، وهي تُطلَق على المخلوقِ أيضًا.

والآن تعالوا بنا نُقارِنْ بين هاتين الكَلِمَتَين:

هـ. مقارنة بين كَلِمَتَي "الرحمن" و"الرحيم"

إن كلتا الكلمتين مشتقَّتان من "الرحمة"، وتُعَبّران عن رحمةِ الله ﷻ، ولكن في حين أن إحداهما تُعَبّرُ عن رحمتِهِ الشامِلَةِ العامَّةِ في أوسعِ أشكالِها، تُعَبّرُ الأخرى عن "رحمةٍ خاصَّةٍ"، وبتعبير دقيق نقول: إن الرحمن تجلٍّ لـ"الواحديّة"، وأما الرحيم فهو تجلٍّ لـ"الأحديّة".

إن كلمة "الرحمن" متوجهة إلى "الأزل" بينما تتوجّه كلمة "الرحيم" إلى "اللايزال"، واللهُ ﷻ قد أوجد الكونَ من العدم بتَعلُّقِ المرحمة التي في روح الاسم الجليل: الرحمن، فالأنظمة والأجرام السماوية وبنو الإنسان والأشجارُ والطيورُ وسائرُ الأشياء قد وُجدت بالاسم الجليل: الرحمن، وكلُّ الموجودات مَعكسٌ لتجلّي الاسم الجليل: الرحمن، فهذه الرحمة العامة الشاملة قد وَسِعَتِ الكون واستوعبتْه قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (سورة الأَعْرَاف: ١٥٦/٧)، فأحاطت "الرحمانيةُ" بجميع الكائنات.

وكلُّ شيء يخضع للأوامر الإلهية -طوعًا أو كرهًا- تحت الرحمانيّة، ففي الرحمانيّة نوع من الجبريّة، حيث إن الله تعالى لم يستأذِن الكونَ حينما خلقَهُ، لم يستأذِنًّا ولم يستأذن الطيورَ والأشجارَ والأحجار، فهذه الجبريّة تنبع من واحديّة الله تعالى، إنه مالك المُلك يتصرَّفُ في مُلكِهِ كيف يشاء، وليس لأحدٍ أن يتدخَّل فيما يفعل، فإن تناولْنا الأمرَ من منظورِ اسمِ الرحمن فقط فلا يبقى أيُّ فرقٍ بين إيمان العبدِ وكُفرِهِ، وبين العدل والظلم، وبين الحقِّ والباطل، وبين الحُسنِ والقُبح، وبين الخير والشر...

لأنه ليس هناك مجال لإرادة الإنسان، وهكذا يكون الإنسان مثلَ سائرِ الموجودات؛ غيرَ مُدانٍ على سيِّئاته، ولا مُثابٍ على حسناتِهِ، بل يكون مثلَ أيِّ شجرٍ أو حجرٍ أو بهيمةٍ يعيشُ في حدود الفِطرة، فلو كانت تجلِّيات "الرحمن" فقط هي التي تَحكُم الكون؛ لكانَ الوضعُ على هذا المنوال، ولكن شاء الله ﷻ أن يُودِع في الإنسان "الإرادةَ"، فاقتضَتْ حِكْمَتُهُ أن يجزيَ بالحسنى مَن استَعمل إرادتَهُ في الخير، وأن يُعاقِبَ من استعمَلَها في الشرِّ، وذلك هو تجلّيهِ تعالى بـ"رحيميَّتِهِ"، وبهذا يكون الله تعالى قد مكَّنَ الإنسانَ ويسَّر له السبيلَ من أسفل سافلين إلى أعلى عِلِّيين؛ فإما أن يرتقي إلى أعلى عِلِّيين، أو ينحطّ إلى أسفل سافلين.

أجل، إذا كان الطيرُ يُرفرِفُ بجناحيه فيطيرُ ويُحلِّقُ في الآفاقِ عاليًا ثمَّ يرجعُ إلى فراخِهِ؛ وإذا كانت الأشجارُ تنمو وتطولُ وتَبْسقُ؛ والعيون تجري نضّاخةً؛ والنباتاتُ تَخْرُجُ مخضرَّةً؛ والأشجارُ تؤتي أُكُلَها في موسِمها؛ والبهائمُ تُعامِلُ أولادَهَا بمنتهى الشفقة والرأفة... فإنما ذلك كلُّه من تجلِّيات "الرحمن"، ولكن هذه الموجودات لا تملك الإرادة، بل إنها مضطرَّةٌ للعيشِ في إطار الحدود التي رَسَمَها وعلَّمها وقدَّرها لها "الرحمن"، في حين أن لله تعالى نوعًا خاصًّا من تجلِّيات الرَّحمة، وهي متعلِّقة بـ"الإرادة"، وهذا هو ما نفهمُهُ من كلمةِ "الرحيم".

وحاصلُ القولِ هو: أنه لولا "الرحمن" لم نأتِ إلى عالم الوجود، ولَانْعَدَمَ الكونُ وسائرُ الموجودات... ولولا "الرحيم" لما كنا نستعمل "الإرادة"، ولَكُنَّا نعجز عن إدراك دقائِقِ صُنْعِ الحقِّ ﷻ.

فـ"الرحمن" بَسَطَ الكونَ أمام أنظارنا مثل كِتابٍ كبير، و"الرحيمُ" مَنَحَنا "الإرادةَ" لكي نقرأَ ذلك الكتاب، فنُحوِّلَ باقاتِ الأنوار التي نلتقطُها من ذلك الكتاب إلى إيمانٍ في قلوبنا، وكذلك مكَّنَنَا "الرحيمُ" من أن

نجتازَ حدودَ الكائنات، ونقتربَ من سواحل الأسماء الإلهيّة ونبحثَ في مكنونات كيفيّات الصفات السبحانيّة وأحوالها، ونتعرّفَ على ذات الباري ﷻ، إنَّ إدراكَ ذات الباري ﷻ غير ممكنٍ؛ فلو حاوَلْنا أن نشرح بألفِ اسمٍ من أسمائِهِ بل بملياراتٍ منها لَمَا استطعنا أن نأتيَ بشيءٍ يُذكَر في بيان ذات الباري، يقول سيدنا أبو بكر ﷺ: "العجزُ عن دَركِ الإدراك إدراكٌ"(٣١)، وفي الخبر: "مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ يَا مَعْرُوفُ"(٣٢)، ومن هذا المنطلق فنحن أيضًا نقول في مقام الاعتراف بعجزنا والإعلانِ عنه كما قال ضيا باشا ﷺ:

إن إدراك المعالي ليسَ من شأن هذا العقل الصغير
فإن هذا الميزان ينوءُ بهذا الحِملِ الكبير

وفحوى الكلام أن الحقَّ ﷻ فتَحَ لنا أبوابَ هذا الكون بـ"بسم الله"، ودعانا إلى مشاهدته، وسَيُغْلِق أبوابَ الكون بـ"بسم الله" أيضًا، ويفتح أبواب دار السلام بـ"بسم الله" وسيدعو بني الإنسان إلى الجنة للفوزِ بالسعادة الأبديّة.

و. البسملة: حبلٌ نورانيٌّ يَربط قلبَ الإنسان بالعرش الأعظم

نلاحظ أن البسملة تتجلّى في كلِّ مكان، لأنها تحتوي على لفظِ الجلالة "الله" تلك الكلمة التي تتضمَّن كلَّ الأسماء الإلهيّة الحسنى.

إن كلَّ الحقائق التي يتولَّى القرآنُ شرْحَها وبيانها مندرجةٌ بشكلٍ مختصرٍ في البسملة، ومن المؤكد أن لهذا انعكاسًا على قوَّة تأثيرِ البسملة؛ وهذا يوضِّحُ سرَّ قول الرسول ﷺ: "**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِـ"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ" أَقْطَعُ**"(٣٣)، وفي رواية: "أَبْتَرُ" وفي أخرى: "أَجْذَمُ"،

(٣١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ٢٥٢/٤؛ المقصد الأسنى، ص ٥٤؛ السيوطي: شرح سنن ابن ماجه، ١٠٣/١.
(٣٢) المناوي: فيض القدير، ٤١٠/٢؛ الألوسي: روح المعاني، ٧٩/٤، ٢٠٢/١٧.
(٣٣) رواه عبد القادر الرُّهاوي في "الأربعين البلدانية".

وكل هذه الألفاظ متقاربةُ المعاني، وهي في مجملها تعني أن كلَّ الأعمال التي لا يُبدأ فيها باسم الله فهي ممحوقةُ البركةِ قصيرةُ العمرِ مبتورةُ الجذورِ ناقصةُ الثمرِ.

والقرآن يتناول أربع حقائق كبرى، وهي: التوحيد والنبوّة والحشر والعدل، والبسمَلَةُ تتضمَّنُ هذه الأمور الأربعة بشكلٍ مجملٍ؛ فالاسمُ الأوّلُ فيها وهو لفظُ الجلالة "الله" متوجّهٌ بشكلٍ صريحٍ نحو التوحيد، والثاني وهو "الرحمنُ" يدلُّ على النبوَّة، والثالثُ والأخيرُ فيها هو "الرحيمُ" وهو يُعَبّر عن الحشرِ والعَدْلِ.

والبسملةُ موجودةٌ في بدايةِ كلِّ سورةٍ من سُوَرِ القرآنِ إلا سورة "براءة"، ويجب -بالإجماع- على كل من ينسخ المصحف أن يكتبها في بداية السور، وإذا تركها يكون قد ارتكب إثمًا.

وفي قراءة البسملة في الصلاة قبل الفاتحة اختلافٌ بين فقهاء الأمة، فعند بعضهم واجب، وعند بعضٍ منهم سنة، وعند البعض مندوب، في حين أن قسمًا منهم يرونها مكروهًا.

ومن العلماء مَن عَدَّ البسملةَ آيةً برأسِها، ولم يعدّها آخرون آيةً قائمةً برأسِها وإنما هي أُنزِلت للتبرُّكِ والفصلِ بين السور إلا التي في سورة النمل.

والبسملة هي بمثابة المفتاح لكلِّ شيء في الحياة، كما أنها بمنزلةِ المفتاح للسُّوَرِ القرآنيَّة، فالبسملة في بداية السورة؛ -سواء كُتبت للفصل بين السور، أو للتبرك والاستعانة بالله تعالى على فهم السورة والعمل بمقتضاها، أو لأيّ غرض آخر- هي حبلٌ نورانيٌّ دُلِّيَ من العرش الأعظم إلى قلب الإنسان؛ فالذين يدركون المعاني السامية لـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ويستفيدون من فيوضاتها، يستطيعون الاستمساك بها والارتقاءَ إلى عرش "الإنسانية".

إن الله تعالى شَرَحَ وبيَّن في الكتب التي أنزلَها كلَّ الحقائق الموجودة في الكون، حيث إنه ﷻ عبَّر عن هذه الحقائق الكبرى على شكلِ معانٍ في صدور الأنبياء الذين يمتلكونَ قلوبًا مؤهَّلةً لِتَجلّي تلك الحقائق وبروزِها، وأَعرَب عنها في صورةِ حروفٍ وكلمات على ألسنتهم، وقد فصَّلَ القرآنُ الكريم خاتمُ الكتب كلَّ ما سبقَ إجمالُه في الكتب والصحفِ والألواحِ المقدّسة السابقةِ، والقرآنُ الكريمُ هذا بتمامِهِ تتضمَّنه سورةُ الفاتحة، كما أن الفاتحة ملخَّصَةٌ في البسملة، فالبسملة خطٌّ نورانيٌّ يربطُ بين كلِّ الأنبياء والكتب، وكلُّ الحقائق الموجودة في الكون موجودة -لا محالة- في البسملةِ على شكل نواة، ولكن لا يوفَّق كلُّ أحدٍ للعثور عليها واستخراجها.